سواء تغافلنا ام لم نتغافل عنها.

يجب ان نسلم بانه تعددت الاسباب و الموت واحد ، و ما علينا الا أن نلملم شتاتنا و نداوي جرحنا ونعزي أنفسنا بأن لكل اجل ميعاد مكتوب . فادع معي لاهالي ضحايا الطائرة المنكوبة بالصبر و السلوان فاللهم خفف عنهم و انزل السكينة علي قلوبهم، و اجعلها اخر الاحزان وانا لله و انا اليه راجعون

٣٧. حتي تكتمل الدائرة

1.

لم تكن تدرك أن للحياة وجه اخر، وجه يختلف عن الوجه المشرق الصبوح الذي استقبلتها به في بدايات العشرينات من عمرها، عندما التحقت بالجامعة ، و ما أجمل أيام الجامعة، و عندما تعرفت علي فارس احلامها و حلمت به و معه، .عندما زفت اليه و ارتدت فستان عرسها الابيض لتدخل عش حبهما الصغير ملكة متوجة . و عندما التحقت بأول وظيفة عملت بها، كم هو جميل ان تري الحياة تبتسم لك و تحقق لك احلامك الواحد تلو الاخر! انها تتذكر جيدا متعة اكتشافها لحملها بذرة الحب الاولي في احشائها، لن تنسي تلك النظرة الممتلئة بالحيرة و الفرحة و الفخر التي رأتها في عين زوجها عندما زفت اليه بشرة الابوة المنتظرة.

لكن ، كم أنتي خادعة أيتها الحياة، تفرشين لنا الارض وردا ، ثم تظهرين وجهك الاخر ، و تقدمين لنا فاتورة باهظة ، نظل نسدد فيها ما حيينا. خدعتها الحياة بحلاوة أول مرتب تقبضه و أول ترقية تشعرها بكيانها و نجاحها و أول طفل تنجبه و أول كل شئ في بدايات حياتها، ثم ، بدأت تسحب منها بالتدريج طعم الاشياء فالراتب لا طعم له و الاطفال توالوا في رتابة و فارس الاحلام فقد اهتمامه بحكم التعود و فقدت الحياة طعمها و أصبحت بلا لون و لا طعم و لا رائحة، كالمياه الراكدة ، كل يوم يتشابه مع سابقه و تاليه ، حتي دخلت تدريجيا في دوامة الحياة.تلك الدوامة التي تشبه عقارب الساعه في رتابتها و انتظامها و تشبه عقرب الثواني في سرعته.

حينها تبدأ الحياة في الالحاح لتسديد الفاتورة، فاتورة اختياراتنا التي تذيقنا الحياة حلاوتها ثم تدخل في صراع معنا لندفع ثمنها . نعم انها تشعر انها تصارع الحياة كل يوم لانها ملت من القيام بدور المدين. تسدد فاتورة الحب بتحمل خلافات الزوجية و اختلافاتها ، تسدد فاتورة الأمومة بتحمل استهتار الابناء و عدم تقديرهم لاي مجهود تبذله من اجلهم ، تسدد فاتورة العمل و النجاح فالراتب لم يعد يكفي و الترقيات تجمدت و المنافسة الغير شريفة مستمرة ، تسدد فاتورة الحنان و الامان الذين شعرت بهم في بيت اهلها برعايتهم و تحملهم في أرذل العمر.

تفكر ، لماذا تلعب الحياة هذه اللعبة ، لماذا تخدعها و تذيقها العسل ثم تفاجأها بالبصل و الدموع و الاهات

انها تذكر جدتها جيدا ، تذكر دعابتها لها يوم عقد قرانها ، عندما قبلتها في جبينها مهنأة ثم قالت لها ضاحكة ؛ اول (اه) نقولها دائما

عند المأذون و بعدها عادة ما تتوالي الاهات". ثم تابعت بنبرة أكثر جدية "و ليست كل اه هي اهة الم و لا كل اه هي موافقة و تأييد و كلنا ندفع أثمان اختياراتنا .

لم تفهم حينها ماذا تعني الجدة ، لكن يبدو انها كانت امرأة حكيمة و انها لم تكن تداعبها ، بل تهبها أثمن هدية تلقتها ! لقد وهبتها حكمة الدنيا في جملة قصيرة، و فارقت الحياة بعدها بعدة سنوات، لكن عدم خبرتها انذاك لم يجعلها تميز الالماس من الزجاج.فظنتها دعابة و لم تأخذها مذهب الجد

طالما اقتنعت بأن احدي عجائب الدنيا هو عدم تعلم الصغار من الكبار و اصرارهم علي تكرار نفس التجارب و الوقوع في نفس الاخطاء و نيل عقوبات الحياة نفسها ، علي مدار الاجيال المختلفة و الازمنة المتعاقبة .

فهي لم تكن تتخيل أنها ستتصرف بسذاجة عندما تقع في الحب، كانت تعتقد انها ليست مثل الاخريات الساذجات،. لكنها تصرفت بحماقة و ليس فقط بسذاجة عندما وقعت في الحب ، لان الحقيقة التي لا نصدقها الا عندما نجربها ان مرآة الحب عمياء ، لذا نري الاحبة يتصرفون بطيش و نذهل من تبريراتهم و ردود افعالهم .

كانت ترى أمها تضحي كثيرا بما تحب و تقمع رغباتها و اهوائها من اجل حجة ليست مبررا في وجهة نظرها انذاك ، وهي اسعاد اولادها و البقاء علي كيان الاسرة، لم تكن تر ذلك أبدا مبررا مقنعا لكل المجهودات التي تبذلها لجمع شمل الاسرة علي مائدة طعام واحدة مثلا ، لماذا لا تتركنا و شأننا نلهو مع أصدقائنا و نأكل وقتما نحب ، لماذا هذا الاصرار علي ان نأكل جميعا علي مائدة واحدة . لكنها فهمت

لاحقا انه ليس امتع عند المرأة من جمع اسرتها في مكان واحد يتناولون وجبة اعدتها لهم و يتبادلون اطراف الحوار و النكات

كانت ترى ان هؤلاء النساء فاشلات ، لا يعرفن كيف ينظمن اوقاتهن بحكمة بين العمل و البيت بعد الزواج ، لذا يفشلن في احداهن غالبا، او يحققن نصف نجاح في كل مجال . انما هي فستبرع في عملها و احلامها تصل للنجوم في السماء و ستبقي زوجها عاشقا ولهانا. لكنها عانت كثيرا حتي لا ترجح احدي كفتي الميزان في البيت و العمل

كانت تنتقد دائما الامهات اللائي ينسقن وراء بكاء اطفالهن فيحققن لهم رغباتهم و تنتقد اللائي يعنفن ابنائهن امام الناس ، و تتعجب لماذا لا يعتدلن في تربية الابناء ، ثم ادركت ان قلب الام لا يمكنه ان يكون صارما فهو عادة يميل بلا اعتدال نحو الابناء فلا يهوى الا اسعادهم، حتي الامهات القاسيات فقد استبعدن قلوبهن تماما حتي يعنفن ابنائهم ، و اول ما ينتهي التعنيف و تحري الدماء في العروق، تخفق قلوبهن بتأنيب الضمير و الاحساس بالذنب و الندم

شعرت بدوار خفيف، فالصور تختلط امام عينيها بين الماضي و الحاضر. دوار رأسها يشبه دوران الارض و السماء في تعاقبهما ، يشبه دوائر الحياة التي بدأت بها من نقطة ما و تدور في نفس المسار الذي دارت فيه امها و جدتها و ها هي تكتشف تشابه المدارات . تكتشف انها بجب ان تدفع مقدما و برضاها بدلا من ان تجبرها الحياة عنوة، فلتكن سباقة بالعطاء و تقديم يد العون قبل ان تدورالدوائر و تجبرها علي السداد فلا تجد رصيدا لها ،

بدت الحيرة في عينيها؛ كان من حقها أن تحيا كما تشاء و تخوض كل التجارب و تعتقد انها ستتغلب علي كل ما أعجز الاخرين ، من حقها ان تحلم وتأخذ فرصتها، لكنها لم تضع ابدا امام عينيها كلام الكبار و لم تأبه بهم و لم تلتفت لارائهم، و هاهي تكتشف ان مسارات الحياة تتشابه ، و أن هناك ثوابت لا تتزلزل الا عند زلزلة الساعة.

و استقرت نظرتها اخيرا و ثبتت فقد ايقنت ان كلام الكبار ليس تخاريف العجزة بل هو لالئ يجب ان تضئ لنا طريقنا و نزين به رؤسنا، فهو عقد من الجواهر النادرة ، صنعوها في ايام من الشقاء و ليال من الهناء تداولت عليهم ، وهاهم يقدموها لنا علي طبق من ذهب ، و نرفسها بأقدامنا و نمضي في الحياة تائهين !

دارت هذه الخواطر برأسها عندما حاولت ان تقنع ابنها ان ما هو مقدم عليه هو شر محتوم، فأبي و استكبر كالفرعون، معلنا العصيان بكل كبر.. أيقنت أنه لن يدرك قيمة ما تقوله الا عندما ينتقل من مدار الصغار الرافضين الي مدار الكبار الناصحين. فقد خلق .الله البشر تدور في مدارات و مسارات علي وجه الارض تماثل تماما مدارات السماء التي تدور فيها الارض و الشمس و القمر و باقي الكواكب. فنحن ندور كذلك حول انفسنا و ندور حول الاخرين كما تدور الارض حول نفسها و تدور حول اشمس . و نحن نري في كل موقع ندور فيه الدنيا من زاوية مختلفة و لا تكتمل عندنا الرؤية الا عندما تتعدد بنا المواقع في المدارات فنبدأ في فهم معني الحياة و تكتمل الصورة في اعيننا و ندرك حينها ما لم نكن ندركه من قبل ، ندرك معني كل كلمة ألقاها علي مسامعنا الكبار ، الذين مروا قبلنا في نفس هذا المدار ، واكتملت لديهم صورة الحياة و حاولوا نصحنا ، فرفضنا بحجج اثبت الزمن انها كلها واهية!

و تعجبت كثيرا من ان تكون الحياة علي هذا الكوكب دامت مئات الالوف من السنين و اختلف علي سطحها البشر ، و توالت الأجيال ولا يزال كل جيل يرفض النصح و يختار دائما أن يدور كما دار الاخرين حتي تكتمل به الدائرة ، فيعود من حيث بدأ!، من تراب من طين !